من أدب الرومان :

مذهب الصـــــداقة

عند شيشرون(*)

للأستاذ منصور جاب الله

في أعقاب غزو قيصر لبريطانيا ، ضرب الدهر رجلا من أنبل رجالات روما في ابنته الواحدة ، فعقد الحزن سحابة في بيته ، وجاشت أفكار الرجل محلقة في سماء تسمو على هذه الأرض المليئة بالرزايا ، المشحونة بكل ما هو موجع أليم .

ذلكم هو شيشرون خطيب روما الأعظم الذي مات في نهايات عام ٤٣ قبل الميلاد ، وكانت حياته حجة للعالمين على إدراك جمال الصداقة وما تُوحي به من السعادة الدنيوية ، فلقد كتب شيشرون أجمل وأوقع وأبلغ ما كتب عن الصداقة على وجه الزمان ، وإذ قضت ابنته كانت سنه تزيد على الستين وكان قد شهد جميع المنافسات والمنازعات السياسية ، وتذوق لذاذات الحياة جميعاً.

وكان يعرف قيمة المال والثراء والصيت الذائع ولكنه لم يجعل لها الكفة الراجحة في ميزانه ، وكانت الفلسفة التي استمدها من تجاريب حياته إبان المحنة تحتبس في هذه العبارة : « ضع الصداقة فوق كل الاعتبارات الإنسانية » .

وعلى هذه الفقرة تفرعت كل كتاباته ، فوصف فضائل الصداقة ومنافعها وحاجة كل إنسان إليها ، والأسباب المؤدية إلى فقدانها . ولقن ذلك الأديب الروماني « جايوس ليليوس » .

للراحة . فكافأته الحكومة البريطانية جزاء القابه الكثيرة براتب سنوي كبير . وكان في هذا الحين قوي البنية سليم التركيب مما جعله يكثر من الكتابة في المواضيع السياسية التي تشغل أهل عصره . وفي سنة ١٨٨٨ تراه يرحل رحلته الأخيرة إلى ليفربول للقاء ابنته العائدة من أمريكا حيث قضى نحبه بينما كان يعدو للحاق إحدى عربات الترام .

وقد أسف الناس لفقده أسفاً شديداً نظراً لهذه الخاتمة المحزنة التي لم يكن يتوقعها الناس لقوة بنيته وسلامة تركيبه .

فنه :

إن من الصعب علينا أن نتناول في هذه المقالة فن هذا الكاتب العبقري دون أن نلم بالنواحي العديدة التي نبه اسمه فيها ، فقد كان حقاً رجلا جامعاً لجميع فنون الأدب ونواحيه . والبحث فيه بحثا مسهباً علينا أن نرسم شخصياته المتعددة ونحللها على ضوء النقد والأدب فنراه كناقد بارع ، وكشاعر رقيق ، وكناثر سلس ، وكسياسي حاذق ، وكفيلسوف ديني شديد الغموض . ولنبدأ في بحثه كناقد أدبي فنرى أثره العظيم في عالم النقد .

نثره :

كان نقده شديد الغموض والاشكال ، وكانت مقالاته في النقد التي ظهرت سنة ١٨٦٥ العامل الأول في ظهور أمره كناقد أدبي وكأديب لم يرتفع اسمه في عالمي الشعر والنثر كما ارتفع في عالمه الثالث . وفي هذا الكتاب تراه يبحث أبحاثاً طريفة أحبها جميع قرائه ، فطالعوها بشغف وإمعان . ومن المسائل الكثيرة التي بحثها في كتابه هذا مشكلة المجمع العلمي وهل من الفائدة في شيء أن تشاد مثل هذه المؤسسة في إنكلترة كما شيدت في فرنسا من قبل . لم يبين وجهة نظره في المسألة بل أخذ النقيضين ودافع عن كل منهما دفاعاً شديداً أخطأه الناس فحسبوه يبحث فيهما بحثاً جدياً خالياً من الفكاهة والدعابة ، وبدأوا ينظرون إليها نظرة الفاحص الخبير ليروا ما يمكن الحصول بواسطتها على نتائج باهرة وفوائد مجدية .

(يتبع)

خيري حماد

(*) ولد شيشرون في إطاليا قبل مولد يوليوس قيصر بأربع سنين ، وتمرس بالمحاماة ، ولما بلغ الخامسة والأربعين انتخب قنصلا وكان أحد حكام روما الذين انتخبا لمدة عام ، ثم صار حاكما لاحدى المقاطعات في آسيا الصغرى . ويعد مصرع قيصر عارض شيشرون مارك أنطوني فصار رجلا ممتازاً . وقبض عليه وهو يحاول الفرار وقطع قاتل مأجور فات بالناً من العمر الثالثة والستين . وعلق رأس خطيب روما العظيم في إحدى الأسواق العامة ، وكانت زوجة أنطوني تكرهه ، فانتزعت لسانه البليغ من فمه وجعلت تخزه بدبوس ذهبي . وكان شيشرون ذا تأثير قوي في مستمعيه حتى ليستدر دموعهم ويحملهم على الرضوخ لرأيه .

ولـكن ليس من ريب فى أن الفلسفة النبيلة الأصيلة عن الصداقة إنما هى من بنات أفـكار شيشرون .

* * *

يساءل شيشرون عمن يمكن أن يكونوا صُدقاناً وأخلاء . ثم يجيب بأن الصـداقة تـكون بين الطيبين الأبرار . فإذا أنت استطعت أن تقنع نفسك بأن لك صديقاً ، فأنت قد تحسب نفسك رجلا طيباً أو امرأة طيبة ؛ وليست الصداقة لهؤلاء الذين ليسوا « طيبين »

ولـكن من هم الطيبون البررة ؟

هنالك مقياس اجتماعى يقيس به شيشرون مقدار « الطيبة » إذ يقول « هؤلاء الذين يعملون ويعيشون ليعطوا برهان الإخلاص والاستقامة والصفاء والـكرم ، هم الذين يتحررون من كل الأهواء والمواجد والسَّفه ، وإن لهم قوة خلقية عظيمة » .

ثم كتب عن اصطناع الصاحب ، والأمور التى يُختبر بها الصديق ، والجمال الذى يستحسن فى الصداقة والأمور التى لا بد من عملها لاصطناع الأصدقاء ، فذهب بادئ الرأى إلى أن الصديق هو الفرد الذى لا يحتجن الإنسان من دونه سراً من الأسرار ، ويضع فيه أسباب الثقة ، ويرى ألا يخشى الصديق من الإفضاء لصديقه ببعض الذى يطويه بين جوانحه من سر مكبوت قد يكون كتمانه مما يؤذى ويضر .

كيف يتسنى أن تـكون حياة تلك التى يقول عنها (أنيوس) « الحياة تستحق العيش » إذا لم تعتمد على إرادة طيبة متبادلة مع صديق ؟ ماذا يكون أحلى من أن يكون لديك امرؤ تجسر على مناجاته فيما تروّر به نفسك ، كما تناجى نفسك ؟ » .

ثم يستطرد إلى القول بأن الصديق هو الشخص الذى لا تتملقه مطلقاً .

« فى الصداقة ، ما لم تظهر قلباً خالصاً لا تستطيع أن تـكون مخلصاً ولا راضياً بالحب ولا بالمحبوب ، والتملق الذى أتحدث عنه إنما هو كفاح ، وقد لا يقوى على النيل من أحد سوى الذى يتقبله وينتبط به . وعلى ذلك لا توجد صداقة فيها جانب لا يروم سماع الصدق ، وجانب مستعد للـكذب » .

والصديق هو الإنسان الذى يتمثل فيه الإنسان الشفقة والرحمة ويتبادلها وإياه ، ويحنو القلب على القلب ، وتمتزج النفس بالنفس ، فتنطلق بالقداسة إلى علو السماك ، فيرى شيشرون فى هذا التبادل العلطى حجر الزاوية فى الصداقة وقاعدتها وركازها .

« ولم يزل الحب أبعد قوة بالتعاطف وبالبرهان على عناية الآخرين بنا ، وبالإلف الشديد تتوثب للحب ، وتتألق المعجزة » .

والصديق هو الشخص الذى نحب سواء استطعنا الحصول عليه أو عجزنا دونه . يقول شيشرون « نحن نعتقد أن الصـداقة مرغوبة لا لأننا متأثرون بالأمل فى الربح ، ولـكن لأن ربحها الـكامل فى الحب ذاته . والحب ليس شيئاً آخر سوى الاحترام العظيم وشعور الميل الذى ألهم هذه العاطفة ، وليس يبحث عنها لأنها حاجة مادية أو بمقصد الـكسب المادى .

وأكثر الناس لا يعترفون بشىء مهما يكن أثره فى التجربة الإنسانية ما لم يؤد إلى بعض الـكسب ، وينظرون إلى أصدقائهم كما لو كانوا ينظرون إلى قطيعهم — أو إلى مصالحهم كما ينبغى أن نقول — وهكذا يخفقون فى الحصول على أجل شىء : تلك الصداقة الثانية المرغوبة فى نفسها ولنفسها » .

والصديق هو المرء الذى تسر لنجاحه سروراً حقيقياً .

« كيف يمكن أن يكون سرورك فى أوقات النجاح عظيما إذا لم يكن لديك من يكون حبوره عَدْل حبورك ؟ والرزية لا بد أن تـكون صعبة الإحتمال ، فبغير الصديق تنوء بالثقل . فالصداقة تضفى بهاء لامعاً على النجاح ، وتخفف من وقع البلية بالمشاطرة فيها »

والصـديق هو الشخص الذى تعامله معاملة الند فى كل الأحوال ولو كنت تختلف عنه فى نظر الناس .

« وأكبر شىء فى الصداقة أن الأعلى درجة والأحط درجة لا بد أن يقفا موقف المساواة ... ولهذا فإن الأخير لا يحزن إذ يفوقه الأول ويبرعه فى الذكاء أو فى الثراء أو فى المنصب ، ولزام عليك أن تبذل إلى صديقك ما قدرت عليه من المعونة .

والصديق هو الشخص الذى لا تشعر من نحوه مطلقاً بشهة ، ولا تشعر من نحوه باستخفاف .

« التباين والاستخفاف هما تجربتا الصـداقة ، وهما ينتجان كثيراً من أسباب الشدة أو الإهانة التى يكون من بعد النظر فى بعض الأحيان تجاهلها ، وفى بعض الأحيان شرح أسبابها ، ثم

احتمالها فى كثير من الأوقات

« هناك أناس يصيِّرون الصداقة كريهة بحسابهم أنفسهم مسهترين ، وندر ما يحدث هذا — فيما خلا حالة الناس الذين يستأهلون الاستخفاف حقيقة — بيد أنه ينبغى لهم أن يتخلصوا من هذه الأفكار ليس بالكلام وحسب وإنما بالعمل .

« من سجايا الإنسان الطيب الذى يجب أن أسميه أيضاً الإنسان العاقل ، أن يتمسك بهاتين القاعدتين فى الصداقة . الأولى : ألا يدع هناك ادعاء أو نفاقاً ، والثانية : الاينبذ الوشايات التى يفضى بها شخص آخر فحسب ، وإنما يجانب هو أيضاً الشبهة والاعتقاد بأن صديقه يجترح خطيئة ما .

« لذلك ينبغى أن تضفى بشاشة أكيدة من الكلام والأخلاق التى تعطى للصداقة نكهة مستساغة »

ولزام أن تعمل عملا شاقاً لخلق الأصدقاء والحفاظ عليهم كما نعمل عملا شاقاً فى أشغالنا .

ولقد اعتاد (شيبيو) أن ينهى شكواه بقوله إننا نألم لكل شىء إلا للصداقة . وإن كل واحد يستطيع الإخبار بما عنده من الغم والمغز ، ولكنه غير مستطيع الإخبار بعدد أصدقائه ، وذلك لأن الناس يلاقون المشاق فى الحصول على الأولين ، ولكنهم لا يبالون باختيار الأخيرين »

غير أنه قبل أن تشاهد صديقك يجب أن تكون حريصاً عليه

« تستطيع أن تحب صاحبك بعد ما تمدحه ، ولكن لا تثن عليه بعد أن تبدأ فى حبه »

ثم ماذا يقول عن أصدقاء المدرسة وعهد الطلب والتلمذة ؟

والقاعدة فى الصداقة أنها تكون بعد استقرار القوة وثباتها فى السن والعقل ، حتى الرجال الذين كانوا يكرسون حياتهم للصيد واللعب لا يحتفظون بأخلائهم فى ذلك الطور إلا لأنهم مغرمون باللعب معهم »

وهب أن الرجل الذى تصاحبه يبدو فى طور لا تستطيع معه أن تعايشه طويلا .

« روابط مثل هذه الصداقة لا بد أن تنحل بارتخاء تدريجى فى التوادّ — والانحلال أولى من التمزق . ولزام أن تتخذ الحيطة لئلا يظهر أن الصداقة لا تطرح جانباً فحسب ، وإنما تنمو مكانها العداوة الصريحة ، ذلك لأنه ليس شىء أشد خزياً من أن تكون فى حرب مع الشخص الذى قضيت معه مرة أوقات ود وصفاء »

ومع كل أخطار الإختيار الأرعن كانت نصيحة شيشرون « داوم على اصطناع أصدقاء جدد » ويتساءل : « هل الأصدقاء الجدد الذين يستحقون الصداقة يكونون مفضلين فى أى الأوقات على الصدقان القدامى ؟ » وهنا يشبّه الصديق القديم بالخمر المعتقة التى تحسن مع الزمن ، « والصداقة القديمة لا بد أن تكون أعظم إسعاداً ، على أن الصداقة الحديثة لا تحتقر إذا هى أبدت الأمل فى طلع نصيح ، كالسنابل الخضر التى لا تحقق فى إظهارنا على أوان الحصاد »

أما هؤلاء الذين يظنون أنهم يستطيعون العمل بغير صداقة أو مودة ، أو يقدرون على السير على طول الطريق اعتماداً على مجرد المعرفة فيقول لهم شيشرون : « إنا كان واضحاً فى بعض أنواع الحيوان أنها تتوق للبحث عن حيوان آخر من فصائلها — وهذا الذى تفعله فى حنين يحاكى إلى درجة ما الحب الإنسانى — فكيف يكون مقدار ذلك من حب الإنسان الذى يحب نفسه ويستعمل أسبابه فى البحث عن شخص آخر تمازج روحه روحه لتكون روحاً من روحين »

تلك هى فلسفة الصداقة عند شيشرون العظيم ، ويا لها من فلسفة ثمينة بالاعتبار فى هذا الزمان الذى هوت فيه الماديات بالمثل العليا حتى ما كادت تبقى على شىء .

* * *

فى متحف اللوفر « لوحة الصداقة » وهى إحدى روائع الفن القديم ، ترى فيها « رُوث » تعتنق حماتها « ناعومى » وتأبى فراقها إذ قضت ذلك الأقدار ، ثم تناجيها بصوت حنان خفيت ، حلو النبرات رقيق : « تالله لا أفارقنك ولا أعودنّ بعدك ، فحيثما تذهبى أذهب ، وحيثما تسكنى أسكن ، فأهلك سيكونون أهلى ، وإلهك سوف يكون إلهى ... »

وتلك صورة مؤثرة تثير الشئون ، وهى خير تعقيب على مذهب الصداقة عند شيشرون العظيم .

(الرمل) منصور جاب الله